محاضرات الأدب المقارن

السنة الثالثة أدب المجموعة الأولى

الأستاذة نسارك

المحاضرة الأولى: مفاهيم حول الأدب المقارن

1-مفهوم الأدب المقارن

الأدب المقارن يعني الدراسات التي تقوم بين أدبين أو أديبين ينتميان إلى قومين مختلفين، وإذا كان لابد من بعض المفاهيم الدقيقة لهذا التخصص فإن المراد منه أيضا: ذلك الأدب الإنساني العالمي الدولي الذي يوثق الصلات ويقوّي العلاقات بين الآداب القومية المختلفة في اللغة.

والأدب المقارن علم حديث يعتمد على المقارنات بين الآداب المختلفة على أساس التأثيرات المتبادلة بينها وهو علم يسعى لإبراز التواصل الثقافي بين الأمم.

2-تسميات الأدب المقارن:

لقد أطلق على الأدب المقارن تسميات عدة لم يشتهر منها سوى اصطلاح « الأدب المقارن ». وكان أبل فيلمان (Abel François Villemain) الفرنسي (ت 1870م (أول من أطلق سنة 1829م مصطلح " المقارنة الأدبية".

–أما جان جاك أمبير (Jean-Jacques Ampère) ت 1864م فقد استخدم سنة 1848م مصطلح « التاريخ المقارن ». وكان سانت بوف-(Charles-Augustin Sainte Beuve)ت 1869م قد استعمل سنة 1871م مصطلح « تاريخ الآداب المقارنة»

وقد استعمل فان تيجم وجان ماري كاريه وبالدنسبرجر اصطلاح « تاريخ العلاقات الأدبية الـدولية » وهم من الرواد الأوائل في فرنسا.

–ولكن اصطلاح « الأدب المقارن » هو الاصطلاح الأكثر شيوعا في جميع لغات العالم رغم اختلافه بين اللغة الفرنسية واللغة الإنجليزية.

–عُرف هذا العلم عند الفرنسيين باسم (littérature comparée) وعُرف في الإنجليزية باصطلاح(comparative literature) ، ومعناه بالفرنسية « الأدب المقارَن » بفتح الراء، وبالإنجليزية « الأدب المقارِن » بكسر الراء.

–اختلفت الآراء حول ماهية الأدب المقارن تبعاً لاختلاف المدارس الأدبية والفنية ومدارس النقد في أوروبا، ومع ذلك فإن ميدان الأدب المقارن ليس ميدانا نقديا.

–وليس الغرض من المقارنة معرفة جوانب تفوق عمل أدبي على آخر، ولا الموازنة أو المقابلة، ولكن المقصود دراسة الأدب الوطني في علاقته التاريخية بغيره من الآداب المختلفة في نطاق اللغة الوطنية التي كتب بها.
–إذن، فالأدب المقارن كاصطلاح هو العلم الذي يبحث ويقارن بين العلاقات المتشابهة بين الآداب المختلفة في لغات مختلفة، والعلاقات المتشابهة لا بد أن يتوفر فيها عنصر التأثير.
غير أن بعض المدارس لا تشترط عنصر التأثير، وقد يرجع ذلك إلى أسباب تاريخية أو أيديولوجية

3-شروط الأدب المقارن:

يعتمد الأدب المقارن على شرطين أساسيين هما:

أ: الصلات التاريخية

إن المقارنة بين الأدباء أو الأعمال الأدبية تتطلب وجود صلة تاريخية بينهما لتوضح علاقة التأثير والتأثر، ذلك لأن الأدب المقارن يسعى إلى الوصول إلى الحقائق وشرحها عن طريق تاريخي، كما يبين كيفية انتقالها من لغة إلى أخرى.

ب: اختلاف اللغة

يجب أن تكون الآداب التي تحاكي أو تقارَن مكتوبة بلغات مختلفة وليست نماذج أدبية مكتوبة بلغة أدبية واحدة، وعلى هذا الأساس فإن المقارنات بين أدباء اللغة الواحدة مهما كانت مفيدة ومهمّة لا تعد من الأدب المقارن في شيء حتى وإن توفرت الصلات التاريخية بين الأعمال الأدبية.

3 -ميدان الأدب المقارن ومباحثه التطبيقية:

من خلال ما تقدم يتّضح لنا جليا أن الأدب المقارن يتوجه للبحث في الصلات بين الآداب الإنسانية، كما يعنى بالأفكار والموضوعات والنماذج الأدبية المنتقلة من أدب إلى آخر.

أ. الأجناس الأدبية :وهي تلك القوالب الفنية التي تُصَبُّ فيها المادة الأدبية، وعلى إثرها يتم تقسيم الإنتاج الأدبي إلى ملاحم، ومسرحيات، وقصص، ومقامات، ومقالات، وروايات...، والباحث المقارن يتتبع نشأة الجنس الأدبي وحركته وتغيراته، وأسباب ذلك، ونتائج ذلك من بيئة إلى بيئة، ومن عصر إلى عصر، ووجب عليه توخي الدقة وإقامة الحجة، وتمحيص المادة التاريخية التي يلجأ إليها أثناء الدراسة.

ب. الموضوعات الأدبية: وهي من المحاور الأساسية التي عني بها الأدب المقارن في مقدمتها ألمانيا وفرنسا، وتتجلى معالم التأثير والتأثر من خلالها، وتتمثل في تلك النماذج البشرية الحقيقية مثل(كليوباترا)، والنماذج البشرية الأسطورية مثل (جحا)، والباحث المقارن مطالب بتحديد مدى أصالة هذه النماذج وهي تنتقل من بيئة أدبية إلى أخرى.

ج.تأثير الكتّاب بعضهم ببعض: وهو من المباحث الأكثر انتشارا في الدراسة المقارنة، ويقوم على فكرتين:

تحديد المؤثِر: ويتم فيه توضيح مقدار التأثير إما جزئي وإما شامل، نحو تأثير شكسبير بأعماله في غيره.

تحديد المتأثِر: وقد يكون فردا أو مجموعة من الأدباء، نحو تأثر أدباء مصر بالكاتب الفرنسي" دي موباسان"، وفي هذا الموضوع يستوجب على الباحث المقارن الاطّلاع الواسع والفهم السليم والتحري الدقيق قبل الاستنتاج. ولهذا فقد أشار الناقد الفرنسي فرانسوا جويار Marius Francois M Guyard إلى أنى"الأدب المقارن هو تاريخ العلاقات الأدبية"[1]

د.دراسة مصادر الكاتب

هي عملية جرد أو إحصاء لاطلاعات الأديب، ومعرفة الموارد التي نهل منها وتأثر بها على تنوعها(كتبا-مراسلات-مقالات...)، وهذه الدراسة تكشف جوانب أصالة الأديب المتأثِر، وحجم إبداعاته، رغم معارضة بعض الدارسين لهذا الأمر بداية.

ه.التيارات الفكرية والأدبية

تتبادل الأمم فيما بينها الأفكار الدينية والفلسفية فضلا عن التيارات الأدبية، والتي لا تظل حبيسة أمة واحدة نحو المذاهب الأدبية، إذ يقف الباحث المقارن عند هذه الأفكار ويوضح ملامح هذه التيارات مع التصريح بمصدرها الأصلي، نحو ما قام به"بول فان تيغم" في (المذهب الرومانسي في الأدب الأوروبي).

و.صورة الأجنبي في أدب ما

قد تكون جزئية كصورة اسبانيا في شعر شوقي، والباحث المقارن يتوجب عليه دراسة حياة المؤلف ليقف على صلته بالبلد، ثم يحدد مصدر المعلومات التي قدمها، وبعدها يبين مستوى الصورة من حيث الصدق والشمولية، وقد تعالج صورة أمة من قبل مجموعة من الأدباء،

[1] ماريوس فرانسوا جويار، الأدب المقارن، تر: هنري زغيب، منشورات عويدات، باريس، بيروت، ط2،1988،ص15

وهذا النوع من الدراسات يمكّن الأمة من معرفة نفسها في نظر غيرها، وتعمل على السعي للارتقاء والتصحيح.

4-نشأة الأدب المقارن:

ترجع نشأة الأدب المقارن إلى حوالي 1827 في فرنسا، حين بدأ "آبيل فيلمان Abel" " Villemainفي إلقاء محاضراته بجامعة الصربون حول عَلاقات الأدب الفرنسي بالآداب الأوروبية الأخرى. والجدير بالذكر أن "فيلمان" هذا هو أول من استخدم مصطلح "الأدب المقارن" وإليه يعود وضع الأسس الأولى لهذا الفرع المعرفي الأدبي

وقد نشأ الأدب المقارن في غرب أوروبا خلال القرن التاسع عشر نتيجة جهود النقاد والأدباء في فرنسا وإنكلترا وألمانيا. والمدرسة التاريخية هي أول مدارس الأدب المقارن التي أسسها الفرنسيون، فهم يزعمون أن الأدب المقارن ظهر في أواخر القرن التاسع عشر مع ظهور المنهج التاريخي.

-غير أن المدارس الأخرى ترى أن هذا العلم ظهر قبل ذلك بكثير، فالدراسات المقارنة النظرية والتطبيقية التي ظهرت منذ أوائل القرن التاسع عشر تعد من الأدب المقارن، وأن الصلات التاريخية التي تشترطها المدرسة التاريخية ليست معيارا ضروريا في نشأة واكتمال الأدب المقارن.

-غير أن الظاهرة سبقت المفهوم، فالتأثير الأدبي ظهر منذ وجود الأدب، ومن ذلك المؤثرات الأدبية العربية والفارسية وتأثير الأدب اليوناني في الأدب الروماني، وغيرها.

-ونتيجة لظروف مختلفة كالهجرة والاستيطان أدى ذلك إلى اكتشاف آداب الآخر ومحاكاة الأدباء. فقد كان هوراس(ت 8 ق.م) في « فن الشعر » يدعو الرومانيين إلى محاكاة اليونانيين. فقد تأثر الرومان بكتب اليونان الأدبية والفلسفية وشتى الفنون الأخرى .أبرزهم فيرجيل اللاتيني) (Virgile) ت 19 ق.م) الذي تأثر في « الإنيادة » (Enéide) بهوميروس - (Homère)عاش في القرن الثامن قبل الميلاد- في الإلياذة (Iliade)والأوديسا .(Odyssée)كما أن هوراس نفسه تأثر بشعراء اليونان الذين سبقوه.

-ويعد الشاعر الفرنسي جان دورا) (Jean Dorat) ت 1588م) من أوائل النقاد الذين أشاروا إلى الأثر اليوناني على الآداب الرومانية دون أن يتطرق إلى الصلات التاريخية

بينهما.

–أما بترارکا الإيطالي فكان على دراية بالشعر العربي في القرون الوسطى، فهو يفتخر بتفوق الشعر الإيطالي على الشعر الأوروبي لكنه يتحسر على عدم بلوغه ما بلغه شعر العرب.

–وفي العصر الأموي والعباسي ترجم العرب معظم النصوص اليونانية إلى العربية ثم ترجمها الأوروبيون في القرون الوسطى من العربية إلى اللاتينية.

–وكان الفرنسيون في عصر النهضة يدعون إلى محاكاة قدماء اليونان والرومان للنهوض بأدب اللغة الفرنسية، والاعتماد على الأصل بدلا من النصوص المترجمة .وهذا ما شجع الطلاب والباحثين إلى تعلم اللغة اليونانية والرومانية.

–لا يجوز محاكاة الأدباء من اللغة نفسها، لأن مثل هذه المحاكاة تؤدي إلى جمود اللغة وركودها. المحاكاة ليست تقليدا محضا، وإنما هي السير على هُدى نماذج بمثابة قدوة للكاتب.

–محاكاة الآداب القديمة يؤدي إلى ظهور أجناس أدبية جديدة، إذا كانت هذه الآداب من لغة أخرى. على أن المحاكاة يجب ألا تمحو أصالة الكاتب. وكان أرسطو) (Aristote) ت 323 ق.م) أول من دعا إلى محاكاة الطبيعة. ومحاكاة الأدباء هي إكمال لنظرية أرسطو.

–لقد تأثرت الآداب الأوروبية في القرنين (17م-18م) ببعضها وبالآداب الأخرى وتعرض لها النقاد بالبحث، من أمثال فولتير) (Voltaire) ت 1778م) وبعض نقاد عصره، إلا أنهم كانوا يصدرون أحكاما ذاتية بعيدة عن منهج الأدب المقارن.

–لم يتجاوز النقد في أوروبا حدود السرد حتى نهاية القرن 18 الميلادي. وفي القرن 19 الميلادي ازدهرت الآداب وتقدمت البحوث العلمية كما تعددت التراجم. فنشأ عن ذلك اتجاهات عامة مهدت الطريق إلى نشأة الأدب المقارن في هذا القرن، من بينها الحركة الرومانتيكية والنهضة العلمية.

المحاضرة الثانية: المدرسة الفرنسية في الأدب المقارن

1-تعريف المدرسة الفرنسية

تنقسم المدرسة الفرنسيّة للأدب المقارن في حقيقتها إلى قسمَين: قديمة وحديثة، فأمّا القديمة فتعود إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر حينما ظهر مصطلح الأدب المقارَن

أوّل مرّة في العالم بفضل جهود فرانسوا آبل فيلمان، وقال بعضهم بل سبقه بذلك معاصره جان جاك أمبير، وقد بدأت المدرسة الفرنسية القديمة بالتبلور على يد فيلمان؛ إذ كان أبرز أعلامها، بالإضافة إلى برونتيير وتلميذه الذي كان يدعى جوزيف تكست وغيرهم.

ومن الأُسس التي قامت عليها المدرسة الفرنسيّة القديمة أو التقليديّة هي:

أن المقارنة تكون بمقارنة أدب بأدبٍ فقط، وتكون المقارنة بين أدبين اثنين أو أدِيبَين اثنَين . وتعتبر الصلات التاريخيّة شرطا رئيسيا لعقد المقارنة. بالإضافة إلى اختلاف لغة الآداب التي تُقارَن.

أمّا فيما يخصّ **المدرسة الفرنسيّة الحديثة** للأدب المقارن فتعود نشأتها إلى النصف الثاني من القرن العشرين، وقد استوعب مؤسّسوها جميع مدارس الأدب المقارن وخرجوا بتصوّرٍ جديد يتناسب مع التطورات الجديدة والمعاصرة للدراسات التي تخص الأدب المقارن في العالم، وقد ألّفوا كتابًا يوحّد آراءهم يدعى: ما الأدب المقارن؟ ومن أبرز أعلامها: بيير برونيل، كلود بيشوا، أندريه ميشيل روسو.

2-عوامل نشأة المدرسة الفرنسية:

تعتبر فرنسا المهد الأول للأدب المقارن؛ نظرًا لعوامل ثقافية واجتماعية وسياسية أهمها:

أ كان المناخ الثقافي الفرنسي منذ العصر الكلاسيكي مواتيًا لممارسة البحث الأدبي المعمق، لاسيما بعد أن تعاقب على فرنسا حكام اهتموا بالعلم والثقافة، وعملوا على جعل فرنسا مركزَ إشعاعٍ ثقافي في أوروبا.

ب- كان الفرنسيون أول مَن تنبهوا إلى قيمة التراث المشترك بينهم وبين المناطق الأوروبية الأخرى، مما أنشأ الأساس الأول للتفكير في الأدب المقارن.

ج- رغبة فرنسا الشديدة في استرجاع مكانتها الثقافية الماضية من خلال التوسعات الاستعمارية في البلدان الإفريقية

3- الأسس التي تقوم عليها المدرسة الفرنسية الحديثة:

تمسّكت هذه المدرسة بما نادت به المدرسة التقليديّة من حيث التأثير والتأثّر، وأيضًا لم تبتعد عن المفهوم الذي تحدّثت عنه المدرسة السلافية والأمريكيّة الذي ينصّ على أنّه من

الممكن المقارنة بين أنواعٍ متشابهةٍ من الآداب وإن لم يكن بينها علاقات تأثيرٍ وتأثر أو أيّ صلاتٍ تاريخيّة. وضّحَت إمكانية مقارنة آداب قديمة وحديثة على أن تكون من لغاتٍ مختلفة . بيّنت إمكانيّة المقارنة بين أكثر من عملين أدبيين، ولكن بشرط أن تكون تنتمي إلى ثقافاتٍ مختلفة. وأيّدت فكرة المدرسة الأمريكيّة في القدرة على مقارنة الأدب مع أشكال التعبير الإنسانيّ الأخرى .أضافت أمرًا جديدًا وهو إمكانية مقارنة الأدب الذي ينتمي لثقافاتٍ مختلفة، ولكن يعود إلى تراثٍ أدبيّ فكريّ واحد، مثلًا إقامة مقارنة بين أديب سوري وأديب مصري ينتميان للعصر الحديث.

4-مبادئ المدرسة الفرنسية:

وقد ارتبطت المدرسة الفرنسية بالمنظور التاريخي للأدب، إذ يرى دارسو الأدب الأعمال الأدبية في صورة أعمال منتظمة في نسق تاريخي، ويطبقون مقولات التأريخ وفلسفته ومناهجه في دراساتهم الأدبية، فقد أشار جان جاك أمبير إلى أهمية التاريخ في الدراسات المقارنة فيقول"سنقوم-أيها السادة- بتلك الدراسات المقارنة التي بدونها لا يكتمل تاريخ الأدب"[2]. وتبدأ هذه المقولات بمقولة (النسبية الزمانية والمكانية)؛ أي أن لكل زمان ومكان تقاليد وأذواق ومعايير وأعراف ونظم سياسية واقتصادية واجتماعية تحكم هذا المكان والزمان، ثم إن هذه التقاليد والأذواق والمعايير تتغير بمرور الزمان واختلاف الأمكنة، وعليه؛ فلابد من الرجوع بالعمل الأدبي حين دراسته إلى فضائه الزماني والمكاني، وأن لا نفسره أو نحكم عليه بأعين عصرنا الحاضر، وإنما بأعين معاصريه .

ثم تأتي مقولات التاريخ الأخرى التي يُطبقها أصحاب المدرسة الفرنسية من مثل: السببية، والنشوء والتطور للظواهر الأدبية، واليقينية وهي تخص العمل الأدبي في توثيقه .

من أشهر أقطاب المدرسة الفرنسية: فان تيجم، فرنسوا جويار، رينيه إيتامبل .

5-مفاهيم المدرسة الفرنسية:

أ-***مفهوم التأثير:*** يأخذ هذا المفهوم عدة أشكال مما يؤدي لاستعمالها بشكل خاطئ من قِبل علماء الأدب المقَارن لعدم قدرتهم على التمييز بينهم، والتأثير هو انتقال(بشكل مقصود أو غير مقصود) لفكرة أو موضوع أو صورة أو عرف أدبي أو انطباع من عمل أدبي لآخر. قسم العلماء هذا المفهوم لنوعين وهما *التأثير الأدبي وغير الأدبي*، و *التأثير المباشر وغير المباشر.*

[2] محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع،دط، د ت، ص14

أما التأثير الأدبي وهو المفهوم الأساسي للمدرسة الفرنسية فمثل الدراسة المقارنة بين مسرحية بيجماليون لتوفيق الحكيم وجورج برنارد شو أو بين الأدب العربي والفارسي، وأما التأثير غير الأدبي فمثل تأثر رفاعة الطهطاوي بالأدب الفرنسي، ويعد التأثير غير الأدبي أقل أهمية للمدرسة الفرنسية لأن الكاتب المُتأثر(المُستقبِل) لا يتشرب مقومات أو مكونات عمل فني محدد لعمله الفني بل يتشرب بعض المكونات الرئيسية والتي يشكلها لعمل فني. وأما التأثير المباشر بين عمليين أدبيين فيحدث عندما يكون هناك تواصل بين الكاتبين سواء أكانت من خلال قراءة النص الأصلي للكاتب أو تواصل مباشر معه، كما يعد إثبات هذا التأثير صعباً وبخاصة عندما لا يذكر الكاتب المتأثر من تأثر به سواء أكان عمداً أو سهواً، ويحدث التأثير غير المباشر بين كاتبين مختلفين لا يوجد بينهما أي تواصل مباشر بسبب حاجز اللغة ويحدث من خلال وسطاء كالأشخاص أو الترجمات إلخ

ج-***مفهوم الاستقبال*:**ليحدث أي تأثر بعمل فني لابد من استقباله أولا، وقد يُستقبل العمل الفني فلا يتأثر به الكُتاب، مثال لاستقبال والتأثر بعمل فني هو ترجمة فيتزجيرالد لرباعيات عمر الخيام، وأما مثال للأعمال التي تم استقبالها ولكن لم تُؤثر في الكتاب فهي الأعمال اليونانية التي تمت ترجمتها للغة العربية في عصر النهضة والتي لم تلقَ اهتماما بسبب الاختلاف الثقافي والديني .

د- *مفهوم المحاكاة والاستعارة* : ويختلفان في المعنى ولكنهما متصلان ببعضهما، والفارق أن الكاتب مقيد وملزم بالنص الأصلي في الاستعارة أما في المحاكاة فلا .

ه-*مفهوم التأثر الإيجابى والسلبي:* التأثر الإيجابي بعمل فني هو التأثر العادي كما قد تم ذكره بأشكاله، أما التأثر السلبي فيحدث عندما يشعر الكاتب بأنه ملزم بالكتابة كرد فعل ضد إهانة لشخصية وطنية محترمة في أدب أجنبي مثل مسرحية مصرع كليوباترا لأحمد شوقي والتي دافع فيها عنها ورسمها بصورة تختلف عن صورتها في الأدب الغربي الذي صورها كامرأة انتهازية وقللوا من شأنها.

6-نقد منهج المدرية الفرنسية :

بقيت المدرسة الفرنسية هي الرائدة حتى سنة 1958 وهو تاريخ انعقاد المؤتمر العالمي للأدب المقارن "بشابل هل" حيث ينازعها روني ويلك."René Wellek" ، ولعل ما يعيب على المدرسة الفرنسية هو دراستها الآلية للمصادر والتأثيرات وعلاقات الأسباب بالمسببات والصدى والشهرة أو الاستقبال المخصص لكاتب أو عمل ما.

وكان النقد الموجه لهذه المدرسة هو عدم التحديد، والخضوع للنزعة التاريخية، والولع بتفسير الظواهر الأدبية على أساس من حقائق الواقع وعدم التناسق بين المنطق القومي، والهدف العالمي، وكانت النتيجة الطبيعية أن احتلت العوامل المؤثرة في الأدب، المكان الأول، من عناية الباحثين المقارنين في حين احتل الأدب نفسه، وهو موضوع الدراسة، المكان الثاني، وبالإضافة إلى ذلك فرض هذا المفهوم الفرنسي تجزئة العمل الأدبي أثناء دراسته وبذلك استبعدت عملية النقد من الدراسة المقارنة.

هذا، وقد ارتفعت أصوات عديدة ابتداء من منتصف القرن العشرين معترضةً على ما يمكن أن يسمى بالتزمت في منهجية "الأدب المقارن"، سواء في فرنسا أو في أمريكا، ومن هنا برزت عدة اعتراضات مفادها أن المقارنين الأوائل -وهم الأوروبيون- كانوا أسرَى النظرة الاستعمارية الأوروبية. واعتبروا آداب العالم كلها، إما منبثقة عن أو منصبة في بحر الآداب الأوروبية، ولم يعطوا الآداب الأسيوية والإفريقية والأمريكية الجنوبية حقها من البحث والاستقصاء، وإنما سمحوا لأنفسهم في أن يعرفوا في دوامة العلاقات فقط. ويطالب هؤلاء بأن تتوسع نظرة الأدب المقارن لتشمل البحث عن المشابهات في الأفكار الأدبية وفي الذوق الجمالي؛ لأنه بغير ذلك لا يكون للأدب المقارن فعالية حية مرتبطة بقضايا العصر.

فالخطأ الذي وقعت فيه المدرسة الفرنسية هو إعطاء الأولوية لعنصر الأدب في المقارنة وليس العكس، كما أن الثقافة الموسوعية "لايتيامبل "R.Etiemble" - طبعت نزعته في الأدب المقارن بطابع الشمولية الكونية التي لا تحتقر مسبقًا أي ثقافة أو أي شَعب؛ هذا وقد وجه "رينيه ايتيامبل" انتقادًا لاذعًا "لماريوس فرانسوا غويار "Marines François Guyardواتهمه بالتعصب الإقليمي والقومي، وبلغ حد السخرية منه حين أعاد طباعة كتابه الذي عنونه "الأدب المقارن" سنة 1958 واستغرب كثيرًا كيف أن "ماريوس فرانسوا غويار" لم يلتفت إلى كل التغيرات التي حدثت في فترة الخمسينيات فيما يتعلق بالدراسات المقارنة؟!

المحاضرة الثالثة: المدرسة الأمريكية

تهدف المدرسة الأمريكية إلى دراسة الظاهرة الأدبية في شموليتها دون مراعاة للحواجز السياسية اللسانية، حيث يتعلق الأمر بدراسة التاريخ والأعمال الأدبية من وجهة نظر دولية. تعرف هذه المدرسة الأدب المقارن وبالذات "هنري رماك" أنه: مقارنة أدب معين مع أدب آخر وآداب أخرى، ومقارنة الأدب بنواحي أخرى من التعبير الإنساني.

هكذا تهدف المدرسة الأمريكية إلى دراسة الظاهرة الأدبية في شموليتها دون مراعاة للحواجز السياسية واللسانية، حيث يتعلق الأمر بدراسة التاريخ والأعمال الأدبية من وجهة نظر دولية. كما ينبني موقف الأمريكيين في عقد مقارنات على أساس الاهتمام بدراسة الأدب في صلاته التي تتعدى حدوده القومية، وهذه الأخيرة هي التي تحدد نوعية الأدب وقوميته وليس اللغة، ومن ثم تعمل المدرسة الأمريكية على تتبع العلاقات المتشابهة بين الآداب المختلفة فيما بينها وبين أنماط الفكر البشري.

1-مفهوم الأدب المقارن عند المدرسة الأمريكية

لم يجد مصطلح الأدب المقارن "comparative literature" في اللغة الإنجليزية القبول الذي وجده في اللغة الفرنسية، مما أدى إلى تأخر الاهتمام بهذا النوع من الدراسات، لاسيما في الجامعات الإنكليزية والأمريكية، وأدى أيضًا إلى ظهور اعتراضات على المفهوم الفرنسي، نتيجة لظهور سياق ثقافي معارض للتاريخية القومية والاجتماعية، شكّل ما يعرف بالاتجاه الأمريكي.

فمنذ دخول الأمريكان عالم الأدب المقارَن فإنّهم أبدُوا رفضًا شديدًا للتقيّد بالمبادئ التي أقرّها الفرنسيّون للأدب المقارن، فوسّعوا باب الأدب المقارن وأدخلوا فيه نزعات مختلفة عالميّة وفنيّة وأدبيّة خالصة، ومن هنا ينبغي أن تؤخذ النظريّة الأمريكية للأدب المُقارَن بجَديّة كبيرة لأنّ الأمريكيّين قد قدّموا حلولًا ذات قيمة في الأدب المقارن من جهة، ولأنّهم قد زاحموا الفرنسيّين على زعامة هذا الفن الذي بقي الفرنسيّون مسيطرين عليه حتى ظهور الأمريكان في ستينيّات القرن الماضي، فأبدى الأمريكان اهتمامًا فائقًا في الأدب المقارن وأعطوه تنظيمًا من ناحية الدراسة جعلهم يُطيحون بالفرنسيّين شيئًا فشيئًا.

2-دور رينيه ويلك في نشأة الأدب المقارن الأمريكي:

لقد تأثّر الأمريكان بالفرنسيّين في الدراسات المقارنة وأخذوا عنهم مفهوم الأدب المقارن ودرّسوه في جامعاتهم، ولكن كان لدى الأمريكان أفكار جديدة تبلورت عندهم غير التي أخذوها عن الفرنسيين، وقد ظهرت بعض تلك الأفكار في كتاب مُشترك ألّفه اثنان من أعلام الأدب المقارن الأمريكي هما: **رينيه ويليك وأوستن وارين**، وكان اسم الكتاب **"نظريّة**

الأدب المقارن"، وقد تبلورت هذه الآراء أكثر فأكثر من خلال المؤتمرات التي عُقِدَت من أجل الأدب المقارن عام 1959م و1976م، وقد أسهَمَ ويليك كثيرًا في بناء المدرسة الأمريكية للأدب المقارن، ولكنّه لم يكن وحده، فقد كان إلى جانبه المُقارِن الأمريكي من أصول ألمانيّة هنري ريماك.

يرى الأمريكان أنّ الأدب المقارن هو دراسة الأدب خلف حدود بلد معيّن، ودراسة العلاقة بين هذا الأدب من جهة ومناطق أخرى من الاعتقاد والمعرفة من جهة أخرى، كالفنون من نَحتٍ ورسمٍ وموسيقى وعمارة وغير ذلك، وكالتاريخ والفلسفة والعلوم الاجتماعيّة من سياسةٍ واجتماعٍ واقتصاد وغير ذلك، فيمكن إجمال ما سبق والقول إنّ الأدب المقارن كما يراه الأمريكيّون هو مقارنة أدب مع أدب آخر أو آداب أخرى، وأيضًا هو مقارنة الأدب مع مناطق أخرى من التعبير الإنساني.

وقد ظلت دراسة الأدب المقارن حتى عشرينيات القرن العشرين في أمريكا تختلط بدراسة الأدب العام، والأدب العالمي، والإنسانيات، ودراسة الكتب العظيمة، وهذا لا يعود - كما يبدو- إلى جهل الدارسين لمفهوم الأدب المقارن ومجالاته لدى الفرنسيين، بل كان هذا الاختلاف نتيجة لظهور متطلبات ثقافية وتوجهات بحثية بلورها **رينيه ويليك** في ثورته على المفهوم الفرنسي، فقد أعلن في المؤتمر الثاني للرابطة العالمية للأدب المقارن في سبتمبر 1958م، عن "أزمة الأدب المقارن" وبيّن إشكالات المصطلح، وطالب بإعادة النظر في مفاهيمه ومجالاته.

فلا يبدو أن **رينيه ويليك** ينطلق من موقف شخصي، وذلك لأن الآراء التي طرحها يمكن ربطها بنسق ثقافي تطلب ظهور مفاهيم جديدة للأدب المقارن، فقد شهد رينيه ويليك وعدد من المقارنين والنقاد في أمريكا في مطلع القرن العشرين عددًا من المتغيرات الفكرية والفلسفية، أدت إلى تكوين نسق ثقافي، يرفض التاريخية القومية والاجتماعية، فتركيبة المجتمع الأمريكي المكون من عرقيات وقوميات متعددة، يجعل من التعصب للجنس أو للقومية الأم نوعًا من العبث، كما أن حداثة تاريخ هذه الدولة مقارنة بتاريخ القومية الفرنسية يجعل الحاضر يحتل أهمية أكبر من الماضي التاريخي، إضافة إلى أن المجتمع الأمريكي قائم على النظام الرأسمالي الذي يعطي الإمكانات الإنسانية الفردية سلطة تفوق سلطة المجتمع، وسلطة القومية.

وقد بدأ النفور من التوجه التاريخي في تناول العلوم والآداب في إنجلترا وأمريكا منذ مطلع القرن العشرين بفعل تأثير الحركة الإنسانية الجديدة، التي نبذت التعصب للقومية أو الجنس لما نتج عن هذا التعصب من حروب، وما أدى إليه من مبالغة في تقدير دور الوراثة أو الجنس في تحديد نمط التفكير والإبداع، وما تطلبه هذا الاعتقاد من ولع بالبحث التاريخي عن أصول المؤلفين، وعن بيئتهم.

وقد لاقت أفكار هذه الحركة رواجًا لدى عدد من الباحثين في أمريكا؛ لأن هذا النسق الثقافي أوجد مخرجًا مهمًّا للولايات المتحدة الأمريكية من إشكالية الأصول القومية المتعددة للشعب الأمريكي، الذي عانَى من الحروب القائمة على التمييز العنصري، إضافة إلى ما أحدثته الحرب العالمية الأولى من أثر جعل كثيرًا من الفلاسفة والمفكرين والأدباء والنقاد ينبذون التعصب لقومية، أو عِرق.

3-الثورة على المعايير التاريخية في الأدب المقارن:

وقد تنبأ رينيه ويليك بأن الأدب المقارن سيكون من أتفه المواضيع إن لم يخضع للمعايير الإنسانية، وأدى هذا التوجه الرافض للتمحور حول التاريخ الاجتماعي أو القومي في تناول الأدب، إلى ثورة عدد من النقاد الأمريكيين ومن بينهم رينيه ويليك وجماعة النقد الجديد على المعايير الأكاديمية التي تهتم بالعوامل التاريخية أكثر من اهتمامها بالنص الأدبي وجمالياته، ووجدوا في أفكار الشكلانيين الروس الرافضين للتاريخية الاشتراكية أو الماركسية ما يلبي توجههم الأدبي، وهذا ما يؤكده رينيه ويليك في قوله: عندما عدت إلى براغ عام 1930م انضممت لفترة من الزمن إلى حلقة براغ اللغوية، فأطلعت على أفكار الشكليين الروس، وكان رومان ياكبسون موجودًا في براغ آنئذٍ، وكان ناقدًا لاذعًا للمنهجية المترهلة التي يتبعها التاريخ الأدبي الأكاديمي.

وقد زوّدتْ هذه الحلقة الدارسين الأمريكيين بمنهجية جديدة، مضادة للتيار التاريخي القديم، فاتجهوا إلى التركيز على النصوص الأدبية، مما أدَّى إلى نشوب صراع بين النقد الأدبي، والتاريخ الأدبي، كان له أثر في حدوث تغيير عميق في المؤسسات الأكاديمية وغيره.

ومن هنا ندرك أبعاد ثورة رينيه ويليك على المفهوم القومي التاريخي للأدب المقارن، فقد رأى ويليك في الإصرار على المفهوم القديم للأدب المقارن تحديًا لهذه التطورات التي حدثت في أمريكا. ولهذا يرفض الدافع القومي في دراسات التأثير؛ لأنه في رأيه يهدف إلى تنمية مدخرات أمة الباحث، عن طريق إثبات أكبر عدد ممكن من التأثيرات التي أثرتها أمة على الشعوب الأخرى، أو عن طريق إثبات أن أمة الكاتب قد هضمت أعمال أحد العظماء الغرباء، وفهمته أكثر من أي أمة أخرى.

وهذا الرفض للدافع القومي، لا يعني أن ويليك ومن معه يدعون إلى الانسلاخ عن الهوية القومية، بل لأنهم وجدوا المفهوم الإنساني أكثر انسجامًا مع متغيرات العصر وطبيعة الأدب، فالتركيز على العلاقات الثنائية القومية يفقد الأدب المقارن أهميته -في رأي رينيه ويليك- ويجعله يندرج تحت تاريخ الأدب، فينصرف جهد الباحث إلى عوامل التأثير، والبحث عن الوثائق التاريخية، التي تثبت التأثير، دون الاهتمام بالنص الأدبي، مما يؤدي -مثلًا- إلى عدم اختلاف دراسة أثر بيرون في إنكلترا، عن دراسة أثره في فرنسا.

ويرفض شرط اختلاف اللغة بين الأدبين المراد مقارنتهما، لأن هنالك عدد من الآداب القومية – كما يقول- لغتها واحدة، مع اختلاف ثقافتها، وبعدها المكاني، ومنها مثلًا الأدب البريطاني والأدب الأمريكي وغيرها فالمدرسة الفرنسية تعدهما أدبًا واحدًا، بذلك يندرج الأدب في الولايات المتحدة الأمريكية ضمن الأدب في بريطانيا، وهذا نوع من التعسف فعلينا أن نقر بأن الآداب في لغة واحدة، هي آداب قومية متميزة، كما هي الحال بين الأدبين الأمريكي والايرلندي، وإلا سيؤدي ذلك إلى تجاهل كثير من الآداب القومية، مثل الأدب البلجيكي والأدب السويسري والنمساوي.

ويريد ويليك من وراء هذا الرفض الكشف عن الخلل الذي وقع فيه، أتباع الاتجاه الفرنسي بسبب التعصب للغتهم ولقوميتهم .

ومن منطلق إنساني يطالب بأن يتسع مفهوم الأدب المقارن؛ ليشمل دراسة التأثير والتشابهات بين عدد من الآداب، وعدم الفصل بين الأدب المقارن والأدب العام، فالاتجاه الفرنسي جعل الأدب المقارن مختصًّا بدراسة التأثير بين أدبين قوميين، وجعل الأدب العام مختصًّا بدراسة التأثيرات والتشابهات بين عدد من الآداب القومية، حيث يرى ويليك في هذا الفصل نوعًا من التعسف الذي لا معنى له؛ فالآداب القومية ليست معزولة عن بعضها؛ لأن هنالك كثيرًا من السمات التي تجمع بين الآداب الأوربية والأدب في الولايات المتحدة، وروسيا، وأمريكا اللاتينية .

ولهذا علينا التركيز في الأدب المقارن على الأدب وجمالياته لا على العوامل الخارجية، وهذا هو التوجه العام لأصحاب مدرسة النقد الجديد في أمريكا، الذين يدعون إلى فصل الأدب المقارن عن دراسة تاريخ الأفكار، أو عن المفاهيم والعواطف الدينية والسياسية التي غالبًا ما يقال: أنها بدائل الدراسة الأدبية، فالكثيرون من أبرز الباحثين في الأدب - وخاصة في الأدب المقارن- لا يهتمون في الواقع بالأدب على الإطلاق، بل بتاريخ الرأي العام وبأقوال الرحالة، وبالأفكار الشائعة عن الشخصية الوطنية... لكن البحث الأدبي لن يحرز أي تقدم من الناحية المنهجية، إلا إذا قرر أن يدرس الأدب كموضوع متميز من غيره من نشاطات الإنسان ومنتجاته.

دراسة العلاقات القائمة بين الأدب من ناحية وبين مجالي المعرفة والمعتقدات الأخرى"، وفي هذا الجزء من التعريف، يضيف إلى الأدب المقارن مجالًا جديدًا، لم يكن موجودًا في الاتجاه الفرنسي، وبهذا تصبح دراسة الأدب مقارنة مع الرسم أو النحت أو فن او علم آخر، ضمن الدراسات الأدبية المقارنة، فالمهم أن يصبح النص الأدبي محورًا للمقارنة، فالهدف عندهم هو الكشف عن جماليات النص الأدبي، ومن هنا نلاحظ اختفاء الإشارة إلى المؤلف أو الاتجاهات أو عوامل التأثير.

وبهذا يتضح تأثير النسق الثقافي الإنساني الرافض للتاريخية الوضعية والحتمية التاريخية في ظهور هذا الاتجاه، فقد مثل هذا السياق مخرجًا -كما يبدو- من طغيان التوجه التاريخي في القرن التاسع عشر، فظهر هذا مركزًا على النصوص الأدبية بوصفها نتاجًا

جماليًّا إنسانيًّا، ولذا أتجه الأدب المقارن إلى الاهتمام بدراسة جماليات الآداب، ولم يعد هدفه إكمال كتابة تاريخ الأدب القومي، أو إثبات مدى إسهام قومية في آداب قوميات أخرى، أو إثبات أن تشابه الظروف الاجتماعية يؤدي إلى تشابه الآداب القومية، بل أصبحت مقارنة جماليات النصوص الأدبية بين عدد من الآداب هي محور اهتمامات أصحاب هذا الاتجاه، فالعمل الأدبي عندهم مثل اللوحة الفنية لا تسأل عن أصول مبدعها أو قوميته.

ولكن هذا لا يعني أن المفهوم الأمريكي ظل استجابةً لواقع وثقافة الولايات المتحدث، وإنما وجد أنصارًا ومؤيدين في مختلف أنحاء العالم، حتى في فرنسا نفسها.

4-نقد منهج المدرسة الأمريكية :

لم تسلم المدرسة الأمريكية -رغم مزاياها الكثيرة- من الوقوع في عدة عيوب نذكر من بينها :

-عدم التمييز الدقيق بين مناهج ومفاهيم الأدب المقارن والأدب العام رغم الاختلاف الجوهري.

-عدم الاهتمام الكبير بالحدود القومية والسياسية أثناء عملية المقارنة بين الآداب.